جيل يعـ ف

كلمة (اقرأ) أول كلمة نزلت على نبينا محمد ـصلى الله عليه وسلمـ. وينبغي أن نفهم الدلالة العميقة لذلك في صورة اكتشاف لأهمية العلم والمعرفة في وجودنا المعنوي والمادي؛ فنحن بحاجة إلى العلم ليس من أجل إخضاع الطبيعة، أو من أجل الحصول على فرصة عمل فحسب، وإنما نحتاجه قبل ذلك من أجل فهم أنفسنا، وفهم طبيعة علاقتنا بخالقنا ـجل وعلاـ، إلى جانب فهم العصر الذي نعيش فيه، والتحديات التي تواجهنا. إن أذهاننا لا تدرك الأشياء على نحو مباشر، وإنما عبر وسيط معرفي مكوّن من مبادئ علمية وعقلية ومعارف وخبرات حياتية. وعلى مقدار ما نقرأ ونتعلم ونجرب يتحسن مستوى ذلك الوسيط، وبتحسنه يتحسَّن فهمنا للوجود، وتتحسن معه نوعية الحياة.

ومع أن العلم ظل يتمتع بالاحترام والتقدير على مدار التاريخ ولدى كل الأمم المتمدنة، إلا أنه يكتسب الآن مكانة استثنائية، لم يتبوأها من قبل؛ حيث إن الأمم كانت تنظر إليه على أنه شيء مواز للعقل والذكاء الفطري؛ وبعضهم كان يرجح الذكاء عليه، وقد كان ذلك يلقى القبول في الماضي من بعض الناس نظرًا لضآلة ما كان متوفرًا بين أيديهم من المعرفة المنظمة. أما اليوم فإن هذا الكم الهائل من المعارف المتكاثرة قد جعل الموازنة غير واردة؛ حيث إن كل التراكمات والتنظيمات والترتيبات الحضارية الموجودة الآن ـ مدينة على نحو أساسي للعلم والخبرة والتجربة. كما أن التعامل مع المعطيات الحضارية والاستفادة منها، ومواجهة مخاطرها لن يستقيم من غير المعرفة المعاصرة.

إن النظرة الحديثة للعلم لا تجعله في موازاة العقل، بل تجعله المصدر الأعظم لتكوين العقل وتشكيل أسلوب حياتنا وعلاقاتنا. ولهذا فإن تحسين مستوى

المعرفة والتثقف لدى الجيل المسلم الجديد ـ يجب أن يستحوذ على الكثير من اهتماماتنا وجهودنا.

ولا نستطيع هنا أن نسلط الضوء على ما يجب تعليمه للطلاب، فحديث ذلك يطول، لكن يمكن أن نذكر بعض الأفكار والمفهومات التي تبرز الملامح العامة للتثقف الجيد، وعلى الله قصد السبيل.

العزوف عن القراءة:

علينا قبل كل شيء أن نعترف أننا قد أخفقنا إخفاقًا ذريعًا في إرساء تقاليد ثقافية تمجد الكتاب والقراءة، وترعى حب الاستطلاع لدى الأطفال وتحميه؛ حيث إن هناك الكثير الكثير من البيوت التي ليس فيها مكتبات خاصة.

كما أن هناك مكتبات منزلية كثيرة ليس فيها أي شيء يناسب الأطفال. ولا يخفى إلى جانب ذلك أن هناك كثيرًا من المكتبات التي لا يستفيد أصحابها منها أي شيء، فهي في نظرهم جزء من أساس البيت، وجانب من تكميله الشكلي! ومع أننا نملك شهية للاستهلاك غير محدودة، وننفق الكثير من المال على أشياء ليس لها أي معنى؛ فإن الذين يخصصون جزءًا من مصروفهم الشهري لشراء الجديد من الكتب أو المجلات لا يشكلون سوى جزء ضئيل جدًّا من المجتمع.

ولذا فإن الوقت الذي يقضيه العربي ـوسطيًّاـ في القراءة، هو تقريبًا سُدس الوقت الذي يقضيه فيها الإنسان في العالم الصناعي! وليس هذا بالغريب؛ لأن هذه الوضعية من المؤشرات المهمة إلى مساحة الهوة الحضارية بين الدول التي تقود الحضارة، وبين تلك التي تستهلك المنتجات الحضارية.

تعليم القراءة في وقت مبكر:

يبدو أن عزوف الأبناء والآباء عن ممارسة القراءة يعود إلى القصور الذي اعترى النشأة الأولى في المترل؛ إذ إن العناية بتأسيس التوجه المعرفي لدى الأطفال في سن مبكرة شبه معدومة، فنحن نعتقد أن الطفل في السنوات الثلاث أو الأربع الأولى، يتأبى على إيصال أي أفكار أو معلومات ذات قيمة إليه. وكثير من الآباء الذين يعتقدون أنهم يملكون رؤى تربوية جيدة يرون أن الأطفال في سنواتهم الأولى لا يحتاجون إلا إلى العطف واللعب. ومع أن هذين الأمرين مهمان جدًّا إلا أن في الإمكان أيضًا توجيه الموقف النفسي لدى الصغار في اتجاه عشق المعرفة وتكوين عادة القراءة عندهم؛ فالآباء والأمهات الذين يعرفون أصول التربية يستطيعون وضع بذور المعرفة الجيدة لدى أبنائهم؛ من نحو الملاحظة، والإصغاء والانتباه، وعقد المقارنات، وتمييز المفارقات منذ وقت مبكر جدًا.

يقول أحد الباحثين: إن تعليم القراءة للأطفال يبدأ منذ سن ستة أشهر. ويقول: إذا أردت أن تربي قراءً جيدين؛ فإن عليك أولاً أن تتعرف على مهارات السرد القصصي؛ أي أن تتعلم كيف تقدم المعرفة للصغار كما يقدم القاصّ الماهر حكاياته المشوقة والممتعة لمن يقص عليهم. والقراءة للأطفال ومع الأطفال منذ سن مبكرة ذات أثر بالغ الأهمية في نموهم الذهني والوجداني. والمهم ليست الكمية التي نقرؤها لهم، ولكن المهم تشجيع الطفل على المشاركة أثناء القراءة، وإلا فإن استفادته منها ستكون شبه معدومة. إذا اخترنا بعناية ما نقصه على الأطفال الصغار؛ فإننا لا نبذر في نفوسهم الاستئناس بالمعرفة والتشوق إليها فحسب، وإنما يمكن أن نوصل إليهم بعض المبادئ والقيم المهمة أيضًا، فمن خلال قصة ممتعة يمكن أن نعلم الطفل حب الناس، واحترام النظام، وتقدير الصدق، والأمانة، والاهتمام بترتيب شأنه الخاص، إلى جانب إعطائه درسًا في

اللغة والتواصل. وسيكون لشراء سلاسل من الكتب المصورة أهمية كبيرة في كل ما ذكرناه.

إن عادة القراءة لن تتكون لدى الطفل إلا حينما يشعر بشيء من المتعة واللذة عندما يقرأ. وهذا لن يكون إلا حينما يشعر الطفل أن القراءة بالنسبة إليه تشكل نوعًا من الاكتشاف، ونوعًا من تنمية الذهن وتوسيع الفهم. وقل مثل ذلك في سرد الحكايات التي نحكيها له، فكلما كان استمتاعه بما نحكيه كبيرًا نما حبه للمعرفة والاطلاع واجتراح المجهول.

الخيال العلمي:

بين سن السادسة والتاسعة يتأجج في صدر الطفل شوق عارم إلى الاطلاع وامتلاك صور ذهنية غير معقدة؛ حيث يجمح الخيال العلمي متجاوزًا نطاق البيئة. وفي هذه المرحلة يكون لقصص الخيال العلمي نفع كبير في تنمية حب المعرفة وتوسيع نطاق الإدراك.

إن الاطلاع المكثف على قصص الخيال العلمي يساعد الطفل على فهم التغيرات التي تطرأ على العلم والحياة الاجتماعية، ومن خلالها يتهيأ للتجاوب مع الاكتشافات الحديثة التي تهدم الكثير من النماذج والمعطيات العلمية القديمة؛ وبذلك يترسخ لديه التشوف إلى معرفة الجديد، والانفتاح على التغير والاستجابة الملائمة له.

ولذا فإن مكتبات البيوت والمدارس ينبغي أن تغتني بكتب الخيال العلمي. وبعد ذلك يأتي دور المدرسة التي عليها أن تشجع على المطالعة الحرة والإضافية؛ من خلال إجراء المسابقات وتقديم المكافآت، ومن خلال توسيع مفهوم الواجبات المترلية.

الاهتمام بالتخصص:

نحن بحاجة -في سياق بنائنا لجيل يقرأ ويعرف ويبحث- إلى أن يشجع المُعلِّم طلابه منذ المرحلة المتوسطة على أن يكون لكل واحد منهم اهتمام خاص بفرع من فروع المعرفة مثل الفقه أو التفسير أو الرياضات أو العلوم أو التاريخ... ويساعده على أن يحوِّل ذلك الاهتمام على سبيل التدريج إلى هواية يملأ بالاشتغال بها أوقات فراغه، بل يبحث عن الوقت الذي يقضيه فيها. وإذا نجح المُعلِّم في ذلك؛ فإنه يكون قد وضع قدمي الطالب على بداية طريق حب الحياة العلمية وخوض غمارها، بل التضحية من أجلها. وإذا نظرنا في تاريخنا الإسلامي، وفي تاريخ الأمم الأخرى، وفي واقعنا المعيش وجدنا أن دور الهواة في تقدم الأمم عظيم جدًّا، ولا يقل في بعض المجالات عن دور المحترفين. وإننا إذ نؤكد على ذلك نطمح إلى ملء أوقات أبنائنا بما يعود عليهم بالنفع، كما نطمح إلى زيادة أعداد المشتغلين بالمعرفة والباحثين والمكتشفين؛ لأن أمة الإسلام تعاني من نقص مريع في هذا الحقل، إذا ما قارنا ما لديها بما لدى الأمم الأخرى.

طريقة تقديم المعلومات:

لا يتعلم المرء من غير بذل الوقت والجهد، وأحيانًا المال. وحتى يجد الواحد منا الطاقة على ذلك؛ فلا بد من أن يشعر أن ما يريد تعلمه شيء يستحق التضحية؛ لأنه سيعود عليه بالخير والنفع. وأعتقد أن كثيرًا من أبنائنا لا يُقْبلون على طلب العلم بولع وشغف؛ لأنهم لا يدرون كيف يمكن للمواد التي يدرسونها أن تعود عليهم بنفع ملموس؛ كما أن أكثرهم لا يدري كيف يوظف كثيرًا من تلك المعلومات في حياته العملية. هذه الوضعية تجعلنا نؤكد أمرين: طريقة تقديم

المعلومة، وهذه من مسؤوليات المُعلِّم. وطريقة تخزينها، وهذه من مسؤوليات الطالب.

أما طريقة تقديم المعارف والمعلومات؛ فإنها تتم الآن على غير الوجه الصحيح؛ حيث يقوم المُعلِّم في كثير من الأحيان بشرح بعض المسائل والموضوعات دون إجراء حوار مع الطالب بشأنها. ويقتصر دور الطالب على قبول تلك المسائل كما شرحت، وحفظها من أجل الامتحان فيها ثم نسيانها! وحين يكون الأمر كذلك؛ فإن الطالب يشعر أن كل معلومة جديدة يتلقاها تشكل عبئًا جديدًا على ذاكرته؛ ولذا فإن عقله الباطن يستحثه على نسيانها والتخلص منها. لكن الأمر سيختلف كثيرًا حين تُقدَّم المعلومات، وتُشرَح المسائل، وتقرر الموضوعات بهدف توسيع قاعدة الفهم، وتحسين مستوى المحاكمة العقلية لدى الطالب.

وحتى يتحقق ذلك؛ فإنه يجب تقديم كل ما نعلِّمه في إطار من الحوار والنقد والترجيح والتحليل والتعليل. وآنذاك فإن الطالب يشعر حقيقة أنه ينمو ويكبر مع كل مسألة يتعلمها. وهذه الطريقة تتيح الفرصة للطالب أن يشارك، وأن يسهم في إنضاج الأفكار المطروحة.

بعد ذلك يأتي دور الطالب في تخزين المعلومات والأفكار والحلول التي يسمعها. ومع أن عليه وحده القيام بذلك إلا أنه يحتاج إلى توجيه وإرشاد. إن علينا ونحن نشرح للطلاب في أي تخصص أن نشجعهم ونساعدهم على تكوين ملاحظات ومفهومات حول ما يدرسونه، وأن يحاولوا الخروج بخلاصات مركزة منه. ونرشدهم إلى أن عليهم أن يختزنوا المعلومات الجديدة لا على أنها مفردات متناثرة، ولكن بوصفها معطيات تشكل منظورًا كليًّا لدى الواحد منهم، يفهم من خلاله التاريخ والحياة والأحياء، ويواجه من خلالها التحديات،

ويخطط للمستقبل... المعلومات الجديدة هي روافد لتشكيل نماذج وبنى إرشادية تضيء أمام الطالب طريقه في الحياة، وتحسِّن إمكاناته وقدراته. إن كل مادة يدرسها الطالب كانت في يوم من الأيام عبارة عن معلومات متناثرة، لا يربط بينها أي رابط؛ وحين تم تنظيمها صارت منهجًا ذا شخصية متماسكة ومستقلة. وإن الطالب يحتاج إلى أن ينظم ذلك المنهج على المستوى الشخصي تنظيمًا ثانيًا؛ فإذا درس الفقه أو اللغة أو التاريخ أو الأحياء أو الاقتصاد... فإنه يحاول توزيع معطيات ذلك الموضوع على مساقات عامة؛ من شأنها مساعدة الفرد والجماعة والأمة على أن يحيوا حياة طيبة، وعلى أن ينهضوا، ويتقدموا نحو أهدافهم الكبرى؛ فالإسلام ينظر إلى العلم على أنه طريق للعمل وتكثير الخير والحد من الشر. نحن نريد من وراء التعليم أن يتحول في كل مرحلة من إطار لتقديم المعرفة إلى إطار لتقديم المغزى الذي ينتفع به الطالب في حياته العملية الخاصة، فالإنسان في الرؤية الإسلامية هو مركز الكون، ويجب أن يستفيد من كل ما حوله؛ من أجل ارتقائه وتحسُّن أحواله.

دعونا نضرب مثالاً واحدًا على كل ما قلناه، وليكن هذا المثال على مادة علمية بحتة هي (الكيمياء)؛ حيث يمكن للطالب أن يستخلص من دراستها مفهومات ورموزًا ونماذج تساعده في فهم الحياة، وفي إصلاحها أيضًا. ومنها:

1ـ التفاعل ذو قيمة كبيرة في توليد أشياء جديدة.

2ـ تفقد الأشياء كثيرًا من خصائصها عند اختلاطها بغيرها.

3ـ كلما كثرت العناصر المكونة لشيء تحول إلى بنية أكثر تعقيدًا.

4ـ التعقيد يوفر بدائل وخيارات أكثر.

5ـ التجربة عامل حاسم في الاكتشاف.

6ـ حين تتفاعل الأشياء في إطار نظام مغلق فإننا نتوقع نتائج يقينية.

بهذا الأسلوب نجسِّر العلاقة بين العلوم، ونعثر على الأرضية المشتركة التي تجعل منها علومًا للحياة. وهكذا فإن الطالب حين يطَّلع على هذه المفهومات فإنه يحاول العثور على ما يؤكدها أو ينفيها أو يعدلها؛ وذلك من خلال قراءته في الكيمياء والفيزياء والتاريخ والاقتصاد وغيرها... كما أنه يحاول أن يعثر على تطبيقات عملية لها. وحين يسير الطالب في هذا الطريق؛ فإنه يشعر أنه صار يملك عددًا ضخمًا من المفهومات القابلة للحوار، وعددًا ضخمًا من المستخلصات التي يمكنها أن تجعل منه في المستقبل فيلسوفًا وحكيمًا ومصلحًا. وبهذا يتجاوز الطالب تفريعات العلوم وتجزيئات المواد إلى وحدة المعرفة وكلية النظرة والخبرة. وهذا ليس بالأمر الشاق كما قد نتوهم، لكن يحتاج إلى المُعلِّم الخبير الذي عنده ما يقدمه على هذا المستوى من التعليم.

اكتشاف السنن:

يمكن للمعلومات أن تكون صماء إذا لم نقدمها ضمن إطار فلسفي يلقي الضوء على طبيعة تركيبها ومدى صلابتها. ونحن ـمع الأسفـ لا نولي مقدمات العلوم وتاريخها وفلسفتها الأهمية التي تستحقها في أي مرحلة من مراحل التعليم، وليس لدينا أي جامعة ـفيما أعلمـ تملك شيئًا يجعلها متفردة في هذا المجال، على خلاف ما هو الشأن في الغرب. وعلى كل حال فإن مما ينبغي التركيز عليه في هذا المجال تدريب الطالب على استخلاص رؤى وقوانين كلية من مجموعة المعلومات الجزئية المفككة. إن العلم يشكّل تنظيمًا أوليًّا للمعرفة. ومعرفة سنن الله في الخلق تمكننا من إيجاد تنظيم شبه نهائي لها.

إن من المهم ـونحن نعلِّم ونربيـ أن نحاول تمليك الطلاب أكبر عدد ممكن من المستخلصات المعرفية التي تعمق معرفتهم بقوانين الوجود، تلك القوانين التي

تدلنا على ثبات الأشياء، والتي تتجسد على نحو رئيس في طبائع الأشياء ومنطقها؛ أي معرفة القوانين التي تدلنا على ثبات الأشياء، والقوانين التي تدلنا على اتجاهات تطورها. والهدف من ذلك تأمين قاعدة صلبة للفهم وللتعامل مع مفردات الوجود.

إن مما يجب أن نوضحه لطلابنا وأبنائنا أن استقراءنا للمعلومات في أي قضية يشوبه دائمًا نوع من النقص والقصور. كما أن المعلومات المتوافرة باتت تتعرض للتزوير والمتاجرة والتوظيف غير الموضوعي؛ أي أن كثيرًا مما يذاع وينشر ويقال ويتداول من معلومات حول مختلف القضايا؛ لا يتمتع دائمًا بالمصداقية. وهذا يدعونا إلى ألا نعوِّل كثيرًا على المعلومات المتاحة في أي قضية، وفي أي مجال، وأن ننمي في المقابل معارفنا في مجال سنن الله ـتعالىـ في الخلق.

إن المعارف الجزئية تحاول دائمًا أن تملكنا شيئًا محددًا. أما السنن فإنها لا تفعل ذلك، وإنما تساعدنا على تشكيل رؤى بعيدة المدى وكلية. إنها توفر لنا حقلاً من الدلالات المرنة، لكنها مع مرونتها لا تخطئ ولا تُضلِّل. ونحن مع هذا نعترف أن المشكلة الكبرى في هذا الشأن تتجسد في معرفة السنة والاهتداء إليها. وتظل معرفة سنن الله ـتعالىـ في كل الأحوال أسهل في المجالات العلمية والطبيعية الجامدة، مثل الفلك والكيمياء والفيزياء... منها في المجالات الإنسانية؛ حيث إن من سنن الله ـتعالىـ في الإنسان أن كل ما يتصل به يميل إلى أن يكون معقدًا وغامضًا؛ ولذا فإن الوقوف عليه يتطلب دائمًا جهدًا إضافيًّا، ولكن مع هذا فإن كل سُنَّة يمكن أن نصل إليها في الشأن الإنساني تعدل آلاف المعلومات المتفرقة.

وأعتقد أن في إمكان المختصين في كل علم أن يكتشفوا من سنن الله فيه ما يغني ذلك العلم، ويقطع الجدل حول كثير من مسائله، ويجعله من ثم أكثر قابلية

للفهم والتطوير. ولكن ذلك لن يحدث إلا إذا أعطوا هذه المسألة ما تستحقه من العناية والاهتمام. إن لدينا عشرات بل مئات الكتب في كل علم من العلوم، وإذا تأملت فيها، فقد لا تجد بينها أي كتاب يتحدث عن السنن التي تحكم ذلك العلم؛ فنحن فقراء إلى حد الإدقاع في محصلتنا السننية. ولا يشبه هذه الحالة سوى غنى مكتباتنا بالكتب التي تتحدث عن التشريع إلى جانب فقرها في الكتب التي تتحدث عن مقاصد التشريع ومراميه الكلية.

إن هذا الدفق الهائل من المعلومات حول كل شيء، وفي كل اتجاه يشكل تحديًا كبيرًا لعقول الناشئة؛ حيث إنه يربك الوعي، ويضعف القدرة على المحاكمة العقلية الرشيدة. وليس هناك من حل سوى تحسين مستوى الفهم للسنن الربانية. وقد كان أحد كبار العلماء يعقد جلسات للعصف الفكري مع زملائه أحيانًا، ومع طلابه أحيانًا أخرى؛ من أجل الوصول إلى قوانين كلية في مسائل الحضارة المطروحة. ولأنه كان باحثًا ممتازًا في النهوض الحضاري وأسبابه ومعوقاته، فقد استطاع أن يبلور عددًا من المفهومات التي تتعلق بهذا الموضوع، واستطاع عن طريقها إيجاد حساسيات جديدة نحو التخلف الحضاري، كما استطاع اكتشاف عدد من السنن التي تحكم الجهد البشري في التقدم والنمو، وفي انعكاسات كل مجال من مجالات الحياة على المجالات الأخرى. وقد كان يحرص على أن يعرض ما توصل إليه على بعض طلابه، وكانوا يشعرون كلما سمعوا منه قانونًا أو سُنَّة أو مفهومًا كليًّا أنهم عثروا على كنْزٍ عظيم؛ حتى قال أحدهم: إن الأستاذ الفلاني يذيقنا من حلاوة العلم ما ينسينا كل حلاوة!

تكوين القارئ المعاصر:

في عصرنا الحاضر تتبلور مفهومات كثيرة تتمحور حول ضرورة تربية الناشئة على الاستقلال الشخصي؛ حيث إن على الواحد منهم أن يرشد نفسه،

ويحرسها، ويسعى إلى نفعها، كما أن عليه أن يعتقد أنه إذا لم يساعد نفسه لم يساعده أحد. وليست مهارة القراءة مستثناة من ذلك. ولذا فإن تثقيفنا لجيل المستقبل ينبغي أن يركز على تربية القارئ الجيد والنهم. وإن على الأهل في المترل أن يقوموا ببذر البذور الأولى للشغف بالمعرفة والاطلاع على الجديد. وعلى المؤسسات التعليمية أن تتولى رعاية النبتات الغضة. وإني أعتقد أن تمليك مهارات القراءة الجيدة أجدى على الطالب من تحفيظه متنًا من المتون أو ديوانًا من الدواوين، وأجدى عليه من أن نجلس معه الساعات الطويلة من أجل أن نشرح له درسًا من الدروس الصعبة.

وهذه بعض الملاحظات في هذا الموضوع:

1ـ في الماضي كان كل شيء في الحياة متقاربًا لضآلة التنوع الحضاري ومحدوديته؛ ولذا فإن قراءة ما يكتب كان متيسرًا لمعظم الذين يقرؤون. أضف إلى هذا أن الناس كانوا ينظرون بحرفية زائدة إلى قطعية مدلولات كلمات (الكاتب) وتقولبها ضمن الأصول والمفهومات المعرفية السائدة. أما الآن فقد تغير كل ذلك؛ فالمدرج المعرفي صار طويلاً جدًّا، وصارت المسافة بين من يقف في أوله وبين من يقف في آخره كبيرة. كما أن النص الجيد لم يعد ذلك النص الذي يفهمه الجميع، والذي يتحمل كاتبه كل أعبائه، وإنما صار النص الجيد هو ذلك النص الذي يشتمل على فراغات معرفية تفصل بينه وبين قارئه. وملء تلك الفراغات من الآن فصاعدًا صار من مسؤوليات القارئ المؤهل.

ماذا يعني كل هذا للمربين؟

إنه يعني أن علينا أن نعد جيلاً يتمتع بحب القراءة إلى جانب تمتعه بالخبرة التي تمكنه من اختيار الكتاب الملائم له؛ كما تمكنه من قراءة النصوص الصعبة التي تحفزه على التفكير كما تحفزه على استخدام حصيلته المعرفية في فهمها؛

حيث تراجع دور (اللغة) بوصفها وسيطًا معرفيًّا لصالح الخلفية الثقافية التي يمتلكها القارئ لموضوع أو كتاب ما. قد أضحت القراءة النوعية مهارة يمكن اكتسابها؛ والمؤسسات التعليمية هي الجهة الوحيدة المؤهلة لتقديمها.

2ـ في عصرنا الحاضر يتسارع كل شيء؛ حيث لا يعادل السرعة في البناء سوى السرعة في الهدم. وكما تحل البيوت الإسمنتية محل البيوت الطينية، تحل مفهومات وأفكار وأنماط معرفية جديدة محل الأفكار والمفهومات والأنماط القديمة. ومع أنه لا يمكن للجديد أن يستحوذ على الصواب دائمًا إلا أنه يستحق أن يُتلقى بانفتاح وبقابلية للاستيعاب. بعض من يأتي إلى المدارس والجامعات نشأ في أسرة أمية لا تعرف للاهتمام بالكتاب أو المعرفة أي معنى. وبعضهم خضعوا في بيوتهم لتربية حرفية ضيقة. وبعضهم نشأ في أسر ثرية تهتم بجمع المال، ولا ترى للعلم والمعرفة أي دور ذي شأن في تطوير الحياة. وبعضهم وبعضهم... وهذه الوضعيات تبرمج عقول الطلاب برمجات مشوهة؛ مما يلقي على المدارس مسؤولية نقدها وتخليص الطلاب منها.

لا بد أن يفهم أبناؤنا وطلابنا أن التكوين الأولي لثقافتنا وعقولنا قد تم عبر ما قرأناه وسمعناه وخبرناه في الصغر، وأنه ليس هناك أي ضمان لصواب كل ما تلقيناه مهما كانت الأسر التي نشأنا فيها علمية وراقية. وحين يستقر هذا المعنى في أذهان الصغار؛ فإنهم يملكون القابلية للتعامل مع المعلومات والمعطيات الجديدة على أنها روافد لتجديد الذهنية. وهو ما يشكل المعنى العميق للنمو المعرفي. وينبغي أن نشرح لهم أن الذي لا تغير القراءة في رؤاه وطروحاته ونظرته للأشياء – مصاب بالعقم والجمود والتكلس العقلي. ولا يعني هذا بالطبع أن نُخْضِعَ القديم لعملية نسْخٍ مستمرة، لكنه يعني أن المفهومات القديمة التي نملكها قادرة على استيعاب المعطيات الجديدة. وعلى سبيل المثال فإن مفهوماتنا عن النجاح والإخفاق والتخلف والتحضر والشورى والمعارضة – تظل قابلة للنمو

من خلال تطعيمها بالخبرات الجديدة. النمو هو سنة الحياة، والمعرفة وسيلة لتحقيقه، وعلى الكبار والصغار أن يتعاملوا معها على أنها كذلك.

3ـ لدى كثير من الفتيان والشباب رغبة في التثقف والاطلاع، لكنهم يواجهون بمشكلة، هي بالنسبة إليهم عويصة؛ حيث يحار الواحد منهم في التعامل مع هذا السيل الجارف من الكتب التي تقذف بها المطابع كل يوم: ماذا يقرأ، وماذا يدع، وإمكاناتهم المادية وطاقاتهم وأوقاتهم محدودة؟ ولذا فإنهم في أمسِّ الحاجة إلى توجيه أساتذتهم ومُعلِّميهم. والحقيقة أن القضية بالنسبة إلى المُعلِّمين لا تخلو أيضًا من شيء من التعقيد، فحتى ينصح المُعلِّم الطالب بقراءة كتاب أو الإعراض عنه يجب أن يعرف شيئًا عن الكتاب أو الكاتب، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الكُتَّاب الجيدين لا يكتبون دائمًا كتبًا جيدة، كما أن المكتبات قد تحظى بكتب ممتازة لكُتَّاب ليسوا معروفين في الساحة الثقافية.

كما أن على المُعلِّم قبل ذلك أن يعرف سوية الطالب وحاجاته المعرفية؛ لأن الكتاب الممتاز كالدواء لا يفيد كل الناس، وكالثوب الجيد لا يناسب جميع من يلبسه؛ ولذا فإننا قبل أن ننصح الطالب بقراءة كتابٍ ما علينا أن نسأله: ماذا قرأ في الموضوع أو العلم الذي تناوله الكتاب؟ ولماذا يرغب في قراءة هذا الكتاب دون غيره؟ وفي ضوء إجابته يتم إرشاده. وعلى كل حال أعتقد أن هناك بعض المفهومات العامة التي تتعلق بالكتاب المفيد، ويمكن أن نثقف بها طلابنا.

ولعل منها:

أ ـ مما أنتجه التغير السريع في المفهومات والأشياء والتطلعات والحاجات ـ أن كثيرًا من الكتب صار له مدة صلاحية ـكما هو الشأن في كثير من الأشياءـ وبانتهاء تلك المدة يكون الكتاب قد استنفد كثيرًا من أغراضه. وهذا الكلام لا ينطبق ـبالطبعـ على كل الكتب، فأمهات المصادر في كل العلوم بالإضافة إلى

المعاجم والموسوعات وروائع الشعر والرواية والقصة تحتفظ بالكثير من قيمتها، ولكن قد تعاني من انصراف الاهتمام عنها؛ ولذا فإنه يستحسن أن يتم توجيه الطالب إلى قراءة الدراسات التحليلية والنقدية لها؛ حيث إن الأعمال النقدية للكتب القديمة هي بمثابة إصدار ثان لها، أو بمثابة تحديث لمضموناتها. أضف إلى كل ما سبق أن ما تستقبله المكتبات كل يوم من كتب تراثية يتفاوت في نقائه، ومدى قدرته على تلبية حاجات الناشئة؛ حيث إن هناك كتبًا تعبر عن رؤية مغشوشة للتدين الحق، كما أن هناك كتبًا كتبها كُتَّاب معاصرون قبل أن يستوعبوا المستجدات العلمية في موضوعاتها، فهي معاصرة التأليف قديمة المحتوى. وهناك كتب ضخمة تناقش قضايا صغيرة جدًّا؛ ولذا فإن حصيلة الطالب والشاب منها تظل ضئيلة مهما شعر أنه استوعبها. وهناك كتب تشتمل على معلومات خاطئة وتعليلات فاسدة... إلخ. وقراءة مثل هذه الكتب لا تستهلك الجهد والوقت فحسب، ولكنها تشوه عقل القارئ وثقافته، فتكون خسارته أكثر من ربحه.

والخلاصة أن علينا أن نوجه الطلاب إلى قراءة أحدث الطبعات المتوفرة، وأن ننصحهم بالقراءة للمبدعين وأولئك المتعمقين في تخصصاتهم، كما أن علينا أن نوجههم إلى قراءة الكتب الغنية بالمصادر والمراجع.

إن الانفتاح المعرفي لا يعني أن يقرأ الإنسان كل ما هبّ ودب، ولكن يعني أن يعي الإنسان المسلم حاجاته المعرفية الحقيقية، وأن يسعى إلى تلبيتها عن طريق قراءة أفضل ما كتب سواء كان قديمًا أم معاصرًا.

ب- من المهم ألا نعوّد أبناءنا وطلابنا أن يبحثوا دائمًا عن الطرق السهلة للحصول على المعرفة؛ لأن لتلك العادة آثارًا سيئة عليهم. وعلينا في المقابل أن نعلمهم احترام العمل الشاق، فالارتقاء العقلي والروحي لا يأتي من غير ثمن،

ولو كان الأمر كذلك لما بقي أحد جاهلاً أو منحطًّا. مهما كانت براعة أحدنا في القراءة، ومهما كان ذكيًّا ألمعيًّا، فسيظل لساعات العمل التي تُبْذَل في استيعاب علم أو موضوع أو قضية ما ـ وزنها المعتبر. ومن الملاحظ أن كثيرًا من الطلاب يسعون إلى الحصول على أعلى الشهادات عن أي طريق إلا طريق العمل الجاد. وربما استطاع بعضهم الفوز بمراده، لكنه يظل يدرك أنه أصغر من الشهادة التي يحملها أو المنصب الذي يحتله. وبعضهم يسعى إلى الحصول على أعلى الدرجات دون الوفاء بمتطلبات ذلك. وهذا بسبب غلبة الحسِّ التجاري عليه. وهذه ليست أمراضًا، ولكنها أعراض للمرض الذي هو انعدام الشغف الحقيقي بالعلم ومعرفة الجديد!

ومن الملاحظ كذلك نفور كثير من الطلاب والشباب من الكتب الصعبة، والبحث عن الكتب السهلة، فهو يريد أن يفخر بأنه يقرأ في كل أسبوع أو كل شهر كتابًا. والكتاب الصعب لا يمكِّنه من ذلك دائمًا. والحقيقة أن القارئ الجيد ليس الذي يقرأ كتبًا كثيرة، ولكنه الذي إذا قرأ قرأ بطريقة جيدة. ولا يبذل الإنسان الجهد عادة إلا في الكتب الصعبة. أما الكتب السهلة فيقرؤها المرء وهو مستلق على ظهره، لكن فائدته منها محدودة؛ لأنها لا تضيف إلى علمه إلا القليل. وأكثر ما تقدمه هو التذكير ببعض ما نسيه.

ولا نريد هنا بالكتاب الصعب ذلك الكتاب الذي لا يفهم منه الطالب سوى النذر اليسير، فذاك كتاب غير ملائم. وإنما نريد به ذلك الكتاب الذي لا يفهم منه الطالب إلا 60 ٪ أو 70 ٪. إنه كتاب يتحدى قارئه، ويستنفر قواه العقلية، ويدفعه إلى التأمل والتفكير. وهذا في حد ذاته مكسب كبير؛ لأن القراء الذين لا يفكرون في معنى ما يقرؤونه وفي مغزاه بالنسبة إليهم لا يحصلون إلا على القليل من ورائه؛ إنهم يمرون على الكتاب مرور الكرام، وليس لديهم الوقت للتأمل فيما قرؤوه؛ مع أننا لا نملك ما نقرؤه إلا من خلال التفكير فيه.

بالتفكير فيما نقرأ تتم برمجة المعلومات التي نطَّلع عليها، وإدخالها في أنساقنا الثقافية ورؤانا الحضارية؛ ولذا فإن على الطالب أن يفكر ما بين ربع إلى ثلث ساعة بعد كل ساعة قراءة. وهذا مرة أخرى لا يتأتى إلا إذا كان يقرأ كتابًا فيه نوع من العمق.

حتى لا يشوِّه التعليمُ العقلَ:

كثير من الطلاب يصيبه الغرور مع قلة ما يعرف وكثرة ما يجهل. وبعضهم يجنح إلى الغلو والتطرف وتسفيه الآخرين والمبالغة في نقدهم من غير أساس علمي مؤصل. كما أن المصاب بهذه الأدواء يشعر بالتشبع المعرفي قبل أوانه، فيكون كالذي يتجشأ من غير شبع! وذلك قد يعود إلى أسلوبنا في تقديم المعرفة له، وإلى أسلوب وسائل الإعلام أيضًا. وربما عادت بذور ذلك إلى مرحلة الطفولة الأولى في المترل؛ حيث يغلب على الناس الأميين ومتوسطي الثقافة التحدث بأسلوب التعميم وإطلاق الأفكار الكبرى، وعدم التفريق بين الصواب القطعي والصواب الاجتهادي.

وأعتقد أن علينا أن نراجع أسلوبنا في التثقيف العام، وفي التعليم المدرسي أيضًا حتى لا يصبح التعليم مصدرًا لتشويه العقل والثقافة.

ولعل مما يفيد في هذا الشأن الأمور الآتية:

1ـ البعد عن التحيز للتخصص؛ حيث لا يجوز لأي مدرس أن يُشْعِر الطلاب بأن المادة التي يُدِّرسُها خطيرة جدًّا بكل تفاصيلها وملحقاتها، وأن عدم فهمها يؤدي إلى كارثة، على حين أن المواد الأخرى هي مواد مساعدة أو تكميلية؛ لأن تشييد الحضارات وتلبية الحاجات الإنسانية المختلفة لا يستغني عن أي علم من العلوم. ثم إن خطورة أي علم، ومدى إسهامه في تطوير الحياة

العامة، وفي الارتقاء بالطالب كثيرًا ما يتوقف على مدى موافقته لميول الطالب ومواهبه وإمكاناته وظروفه.

2ـ علينا ألا نسوق الظنيات مساق القطعيات، وأن نسوق القطعيات مساق الظنيات، وألا نسرد أقوال العلماء على أنها مسلّمات لا خلاف فيها، فذلك يولد لدى الطلاب عقلية البعد الواحد، كما يولد لديهم ضيق الأفق، ويجعل إمكانات تشغيل عقولهم فيما يتلقونه محدودة. وإنما علينا أن نسوق الأقوال والنظريات المتعددة في المسألة الواحدة، حتى لو لم نتمكن من الترجيح بينها؛ فإن مجرد سوقها يلقي في روع الطالب أن الصواب في القضية المطروحة، إنما هو صواب نسبي أو اجتهادي. وهذا ـكما قلناـ لا يساعد على تعزيز المرونة الذهنية وروح الانفتاح فحسب، وإنما يساعد كذلك على التخفيف من وطأة الأفكار المغالية. وكل هذا يتم بطريقة آلية ولا شعورية.

3ـ من واجبنا أن ننتبه ونحن نعلّم أن هناك مئات ألوف الباحثين الذين يشتغلون بقضايا تتصل على نحوٍ ما بما نعلمه، وأن نتائج تلك البحوث لا بد أن تُدْخِل بعض التغييرات على جوهر ما نقدمه للطلاب، وهذا يدعونا إلى أمرين:

الأول: أن نقدر ونحن نفكر فيما نعلِّمه حجم ما لا نعْلمه في تخصصاتنا؛ فالعالم الحقيقي لا يعتدُّ بما يعرف فحسب، وإنما يحسب حساب ما لا يعرف أيضًا ـوهو ليس بالقليلـ ويأخذه بعين الاعتبار.

الثاني: أن نحتفظ بنهايات مفتوحة للرؤى والنظريات والأفكار والمقولات التي نشرحها ونقررها لطلابنا كل يوم؛ بمعنى أن نترك دائمًا مجالاً للاحتمال والخطأ، كأن يقول المُعلِّم: هذه وجهة نظري، وقد تكون هناك وجهة نظر أخرى. أو يقول: هذا ما أعرفه، وقد يكون هناك أقوال أخرى. أو يقول: إن

كلمة العلم في هذا ليست قاطعة وما زالت في هذه القضايا بعض الزوايا الغامضة... إلخ.

بعض المُعلِّمين يخشى أن يؤدي هذا التطريز على الأسلوب التعليمي إلى وقوع الطلاب في (بلبلة فكرية)، أو يؤدي إلى جعل المعرفة في عيونهم هشة أكثر مما ينبغي. ومع أن هذا الكلام قد ينطبق على الطلاب الصغار نسبيًّا؛ فإن الميزات التي نحصل عليها من وراء ذلك أكبر بكثير من المحذورات.

إننا نريد من العلم ومن التعليم تحفيز الطاقات العقلية وإطلاقها لا تقييدها وتكبيلها. والطريقة المذكورة مما يساعد على ذلك.